والرأي السائد عند الغالبية العظمى من الكتاب وبخاصة علماء الأنثروبولوجيا، هو ان اللغة قديمة قدم الانسان وأنها ظهرت بظهوره، وإذا كان بعض أنصار المدرسة التطورية يذهبون القول بان الانسانية مرت بمرحلة لم تكن تعرف فيها اللغة، فانهم يقيمون ذلك على اساس تخميني بحت حتى يتفق رأيهم مع النظرية التطورية العامة التي ترى أن الأشياء تبدأ بداية بسيطة جدا ثم تتدرج في التعقيد بحيث تصل الى ما هي عليه الآن. ومع أن العلماء التطوريين أسدوا خدمات جليلة لدراسة اللغة من الناحية التطورية فليس هناك ما يسند زعمهم بان المجتمع الانساني مر بمرحلة لم يعرف فيها اللغة، بل اننا نجد على العكس من ذلك ميلا شديدا واضحا الى تأكيد ظهور اللغة مع نشأة المجتمع، وان اللغة كانت ملازمة لظهور بقية ملامح الثقافة القديمة مثل اختراع النار أو شطف الصوان أن لم تكن اقدم منها –وهذا هو الأغلب – لان مثل هذه المظاهر الثقافية والاختراعات المختلفة لم تكن لتظهر لولا اللغة التي هي أداة للتعبير والتفاهم[1]. وعلى ذلك فالأرجح أن الإنسان عرف الكلام في الوقت ذاته الذي خطا فيه أولى خطواته وتكوين تقليد ثقافي خاص وهذا يرجع الى مليون سنة تقريبا أو أكثر، ويحاول بعد علماء الأنثروبولوجيا أن يستدلوا على قدم اللغة ببعض الأدلة غير المباشرة نظرا لأنه ليس من السهل الاحتفاظ بالكلام، لأنه لا يترك وراوه اثرا باقيا يمكن الرجوع اليه مثلما ترجع مثلا الى الادوات الحجرية. وكل الاثار والتسهيلات المكتوبة تعتبر من الناحية الأنثروبولوجية البحتة حديثة جدا وان الكتابة لم تظهر لأول مرة في تاريخ الإنسان الا منذ عام ٤٠٠٠ ق.م تقريبا وكانت مقصورة حينذاك على عدد قليل جدا من المجتمعات، وكثير من اللغات الإندو اوربية كالإنجليزية مثلا لا يوجد لدينا عنها اية تسجيلات مكتوبة إلا قبل القرن الثامن الميلادي، بل أن أقدم كتابة من أي لغة اندو اوروبية وهي لغة الانديك ريجفيدا (Indic Rigveda) لا يرجع تاريخها الى أقدم من سنة ١٢٠٠ ق.م الموجودة بالوقت الراهن. وبالمثل فأننا لا نكاد ان لا نجد اي كتابات متماسكة في

---

[1] Sapir, Language, op. cit, p. 23.

معظم اللغات السائدة عند المجتمعات (البداية) الموجودة في الوقت الراهن، والمبرر الوحيد للقول بان اللغة كانت موجودة منذ قدم عصور التكنولوجيا البسيطة في العصر الحجري القديم هو أن الثقافة حتى المادية منها لم تظهر الا حين عرف الانسان كيف يرمز الى الاشياء، اي ان ظهور الثقافة ارتبط بظهور الرموز، وانه من دون الرموز لا يمكن للأدميات ان ترتفع الى مستوى أعلى بكثير من بعض القردة الحالية كالشمبانزي مثلا. والبقايا الأركيولوجية تدلنا على أن الإنسان المبكر كان قادرا منذ البداية –اي مثل مليون سنة تقريبا –ليس فقط على استخدام الآلات والأدوات البسيطة أيضا بل – وهذا هو المهم –على نقل لغته الى ذريته والى الأجيال التالية التي أدخلت عليها الكثير من التعديلات والتحسينات والإضافات: وان كان هذا تم بطبيعة الحال ببطيء شديد[٢].

ومعظم الادة الاتي يستشهد بها هؤلاء العلماء للتدليل على قدم اللغة مستمدة من اللغات الحديثة، الى جانب ما سبق تقريره بالفعل من اننا لا نعرف اي شعب من الشعوب القديمة او الحديثة لم يعرف اللغة. ويمكن أن نلخص هذه الادلة (غير المباشرة) في أن اللغات الحديثة الموجودة في الوقت الحاضر في العالم متعددة الى ابعد حدود التعدد وشديدة الاختلاف والتفاوت. ولسنا نعرف عدد اللغات الموجودة لان بالفعل ولكن لابد أنها تصل الى بضعة آلاف. وكثير من هذه اللغات متل بعضها ببعض مما يعني المستمدة من اصل واحد مشترك اقدم منها، وبذلك فانها تنتمي الى عائلات لغوية معينة. وهناك الان – على ما يقال – مئات من هذه العائلات اللغوية، ومعظمها لا يعكس اي نوع من التشابه فيما بينها مما قد يدل على انه اذا كانت لها كلها اصل واحد (وهو مالم يثبت حتى الآن على اية حال) فلا بد أن يكون ذلك الأصل تدب قديما ثم اختفى بمرور الزمن، فوجود اللغة عند الجميع مع تنوع اللغات الحديثة لا يعني – في نظر بعض علماء الأنثروبولوجيا– سوى ان اللغة قديمة جدا ، فاذا اضفنا

---

[2] Beals, R.L. and Hoijer, H. An Introduction to Anthropology, Macmillan, N.Y. 1959, p. 573.

الى ذلك كله ان اللغة تتغير في العادة ببطئ شديد فان التفاوت الكبير الذي نشهده بين اللغات التي تنتمي الى عائلة لغوية واحدة يمكن أن يعتبر دليلا على قدم هذه اللغات : لأن مثل هذه الاختلافات لا يمكن أن تكون تمت إلا خلال احقاب طويلة جدا من الزمن[٣].

[٣] من الصعب تصنيف اللغات قديمها وحديثها في حدود الفاظ ودرجات النمو والتطور، فليس ثمة لغات بدائية وأخرى أكثر تطورا من ناحية البناء، اذ لكل من اللغات نسقها الواضح من الأصوات الكلامية (speech–sound) وهي أصوات محددة في العدد ومتمايزة تماما فيما بينها واحدة عن الأخرى، وتوضح هذه الأصوات بعها بجانب بعض لتكوين كلمات وعبارات وجمل وفقا لقواعد معينة. ومن هذه الناحية لا يوجد فارق بين اللغات عند كل الشعوب التي تمتلك ثقافات متفاوتة في درجة التقدم. وفي ذلك تختلف اللغة عن بقية السمات الثقافية يضاف ال ذلك ان لكل الجماعات – بصرف النظر عن مد تخلفها او تطورها الثقافي–مفردات لغوية تكفي لإشباع حاجاتها، وان كان حجم هذه المفردات يتفاوت من لغة الى اخرى فان هذا التفاوت هو تفاوت ثقافي وليس تفاوتا لغويا، فقد يكون للجماعات المتخلفة ثقافيا حصيلة من المفردات اقل مما نجده في اللغات المتقدمة، وذلك عن طريق الابتكار او الاستعارة من اللغات الأخرى كلما قامت الحاجة الى ذلك. واخيرا فان لكل اللغات نظاما محددا من قواعد اللغة التي هي باختصار عبارة عن ترتيب معقول للأصوات او مركبات الأصوات لعمل كلمات وعبارات وجمل، وهذا الترتيب يتم حسب قواعد محددة في كل اللغات وفي كل المجتمعات، انظر في ذلك

Hoijer, H.; "Language and Writing in Shapiro, op. cit pp. 198.99